في منظارهم وفي منظارنا

يستعرض اول المقالين التاليين نظرة المؤلفين الاوربيين للعرب والاسلام، وتطورها خلال القرون من تهجم وعدائية الى محاولة للتفهم والتفاهم . اما المقال الثاني فهو تحليل جديد لشخصية لورنس وسره ، هو احد المرات النادرة التي يتصدى فيها كاتب عربي لهذا الموضوع الذي نشر الغربيون عنه، من وجهة نظرهم ، دراسات اكثر من ان تحصى .

صور غربية للعرب

حسن جوادي

يروي الشاعر الفارسي الصوفي الشهير ، مولانا جلال الدين ، في قصيدته « مثنوي معنوي » ، ان اربع قطع من نقود اعطيت الى اربعة رجال ، فارسي وعربي وتركي واوربي . فاتفقوا كلهم على شراء عنب بها ، انما طلب كل منهم العنب بلغة قومه التي يختلف اسم العنب فيها عن اللغات الأخرى . وخلص الشاعر من القصة الى القول ان لكل انسان طريقه واسلوبه في السعي وراء الله ، ولكن الاهداف واحدة . غير أن اوربا لم تشارك الشاعر في نظرته هذه ، ان اردنا أن نحكم عليها من كتابات بنيها وتصوراتهم للشرق في العصور الوسطى . فقد حيكت صورة الشرق (والاسلام بوجه خاص) في ذهن الرجل الاوربي من خيوط من الجهل والتعصب والتجني ، حتى حفل التراث الاوربي بسوء فهم

الشرق وسوء تصويره ، ولم يفطن رواده الى ان البشرية واحـدة ، وان للحضارات والاديان أسساً ومثلاً واحدة ، وان القلوب واحدة ، مهما تعددت او اختلفت الالسنة والالبسة والالوان والمعتقدات .

كان بزوغ فجر الاسلام الخاطف ، وقيام امبراطورية العرب الواسعة بين اسبانيـا والهند ، مع حضارتهم التي ازدهرت ازدهـاراً عجيباً ، مشكلة عويصة حارت اوربا في القرون الوسطى في فهمها . اذ لم تقدم الكتب المقدسة ايضاحاً لتلك المشكلة ، رغم رسوخ الاعتقاد بأن تلك الكتب تشرح كل حدث . واسقط في ايدي الاوربيين وهم يبحثون عن أجوبة لهذه الاسئلة : ما هو الاسلام ؟ هل هو هرطقة ام دين جديد ؟ هل هو من عمـل الانسان ام الشيطان ؟ هل هو ظاهرة على قرب نهاية العالم ؟ كما احتارت اوربا في أيّ سبيل تسلك وأيّ عمل حاسم تقوم به لتقرير موقفها من الشرق : أحروب صليبية ، ام تبشير ، ام معايشة ، ام تبادل تجاري ؟ وقد احتاج الوصول الى قرار بشأن هذا الى معرفة صحيحة والى حكم عادل . أما المعرفة الضرورية فقـد أمّنتها الاتصالات بين الشرق والغرب ، التي ازدادت مع الأيام . ولكن الغرب احتاج الى قرون عديدة قبل ان انتج رجالاً يحكمون على الشرق حكماً عادلاً ونزيهاً غير خاضع لرواسب الجهل او التعصب .

وقد انزعجت اوربا من وجود الامبراطورية العربية ، واعتبرت تلك الامبراطورية عقاباً من الله وخطراً يهددها بالفناء . وكان اكثر المروجين لهذا الرأي من الاسبانيين الذين شاهدوا سقوط ملكهم وانضمام شبه جزيرتهم الى الدولة العربية الكبرى . فوضع احدهم، بول الفاروس القرطبي ، كتاباً يهاجم فيه تساهل السكان في اوربا مع المسلمين الذين جاؤوا بلادهم . وقاده نفوره من التعايش السلمي بين عنصري الاندلس الى اتهـام النبي العربي الكريم بأنه هو المسيح الكذاب الذي تنبأ سفر « الرؤيا » بمجيئه عند نهاية العالم ـــ وقد فهم الكاتب من السفر المذكور ان مجيء المسيح الكذاب سيكون في السنة ٦٦٦ ، وهي السنة التي مات الرسول فيهـا حسب التقويم الاسباني ! وانتشرت نظرية القرطبي انتشاراً واسعاً ، وترقب المواطنون حلول يوم القيامة مع الفتح العربي في بلادهم .

أما خارج اسبانيا وجنوبي ايطاليا ، حيث حصلت اتصالات مباشرة مع المسلمين ، فقد كان الصليبيون هم الذين كوّنوا لأوربا فكرتهـا الأولى عن الاسلام والعرب . ويستطيع المرء ان يتصور كم كانت تلك الفكرة عدائية وتميزية وقاتمة ، شأن اية فكرة

يطلقها المحاربون المغلوبون على امرهم ضد اعدائهـــم . فقد سُمي المسلمون بالسراسنة عموماً ــ وهو اسم مبهم الاصل ، وربما كان تحريفاً للفظة شرق او شرقي . ومع هذا اتُهم العرب بأنهم هم الذين ابتدعوا الاسم واطلقوه على انفسهم ، اشتقاقاً من اسم زوجـــة ابراهيم : وذلك (حسب زعم الروايات الاوربية آنذاك) لأن العرب شعروا بضعة اصلهم لأنهم من ذرية اسماعيل ، ابن ابراهيم من زوجته هاجر الجارية ، بينما كان الاوربيون من ذرية اسحق، ابن ابراهيم من زوجته سارة الحرة ــ أي ان العرب ارادوا ان يساووا أنفسهم بالأوربيين فنسبوا انفسهم الى سارة التي انتسب الاوربيون اليها ! وقد صوّرت الآداب الاوربية (كأغنية رولاند الشهيرة) السراسنة كقوم يعبدون الأوثان ولا يؤمنون بالله ، وصوّرت محمد كواحد من هذه الأصنام !

وأدى ذلك الى قيام وفرة من القصص المختلفة عن الرسول العربي ، وهي اما تحريف لقصص واحاديث وروايات ونوادر اسلامية او عربية ، او مجرد روايات صنعتها المخيلات الاوربية واستساغتها العقول وتناقلتها الشعوب والاجيال دون تحرٍّ عن الحقيقة . وقـــد نُسبت الى محمد فيها اسوأ الأفعال واقساها وافظعها . من ذلك : تذكر المصادر العربية ان راهبا سوريا بحيرى تنبأ للرسول برسالته وهو بعد صبي . فدمجت هذه القصة في اوربا مع رواية اخرى ، ونتجت عنها اسطورة شاعت وكأنها الحقيقة ، نُسب القرآن فيها الى سرجيوس (وهو راهب نسطوري انحرف عن الايمان المسيحي فأمر البابا بقتله) ! وهذا مثل على القصص المختلفة تماماً : درّب محمد حمامة على ان تلتقط الحبوب وتأكلهـــا من اذنه ، لذلك كانت تأتيه دائماً ــ فزعم للناس ان هذه الحمامـــة هي الروح القدس الذي يحمل اليه الوحي الالهي ! وقد استمر رواج هذه الرواية الي مابعد عصر الانبعاث .ومثلها القصة التي ذكرها فرانس بيكون في مقاله « الجرأة » عن الخوارق النبوية ، وكانت القصة المذكورة مصدراً للمثل الانكليزي السائد حتى اليوم : ان لم يأت الجبل الى محمد ذهب محمد اليه . ولم تنحصر مثل هذه الروايات والافكار في العامة الجاهلة ، بل ان اقـــدر المؤلفين كانوا يتأثرون بها ويبنون نظرياتهم من وحيها ، مثلما كانوا يشيعونها ويقدمون الحجج عليها ، ويسهمون في تغذية اذهـــان العامة بوقائع مشوّهة او بأخبار ملفّقة . ومع ان المؤرخ جلبرت ، من نوجنت ، يعترف في تأريخه للرسول (وهو احد اقدم السير النبوية في الغرب خارج اسبانيا) اعترافاً صحيحاً بأنه ليست لديه مصادر اولية عربية ، فانه يفشي

تحامله بقوله : « ولكن لا خوف من الكلام عن رجـــل تفوق شروره أيّ ظلم يمكن ان نظلمه به » .

مثل هذه الكتابات هي التي كوّنت صورة الشرق في الذهن الغربي في القرون الوسطى وعصر الانبعاث .

الا ان الاوربيين وجدوا انفسهم في حاجة الى مدنية جوهرها الاسلام وحملتها العرب، بالرغم من عدم رضاهم عن تلك المدنية ولا عن جوهرها ولا حملتها . فقد تفوّق الشرق على الغرب فكرياً تفوّقه عليه عسكرياً . وكوّن العرب مدنيةمتناسقة من مدنيات مختلفة، فيها الاغريقي وفيها المصري والفارسي والهندي . وغذّى علماء الدولة العربية المعرفة البشرية واسهموا فيها اسهاماً فعلياً . واذا راجع الانسان نتاج عالم كالبيروني رأى اتساع افق الفكر الاسلامي . فقد قارن البيروني بين الطبّين الهنـــدي والاغريقي في كتاب « الصيدلة » ، وعرّفنا على العلوم والتقاليد الهندية في « كتاب الهند » ، واعطانا صورة مبهجة عن امم العالم القديمة في « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، ولخص لنا معلوماته في الهندسة والجغرافية والفلك في « التفهيم » الذي كتبه بالعربية ثم بالفارسية . لقد عملت ترجمة مصادر مثل هذه (مصادر كتبها اصحاب المعارف الواسعة في تاريخ الحضارة العربية) على تقريب الاوربيين الى تلك الحضارة : فاطلعت اوربا على كتب ابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد ، وعُلّمت في جامعات الغرب واديرته بحماس وتقدير . ويمكننا ان ندلل على احترام اوربا للثقافة العربية الاسلامية بما جاء في « الكوميديا الالهية » : فمع ان دانته وضع الرسول في قاع الجحيم ، فانه وضع ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الايوبي في مرتبة سامية ، اذ ضمهم الى جماعة الصالحين من غير المسيحيين ، مـــع ابطال الاساطير الغابرة . فقـــد اعترفت اوربا بقيمة الفكر العربي واثر العلم العربي ـــ ولكن كرهها للرسول العربي استمر .

واحتكّ عالما الشرق والغرب احتكاكاً مباشراً في اماكن عديدة من اسبانيا وصقلية وسوريا وبيزنطية ، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وقد بلغ تعهد اوربا للثقافـــة العربية ذروته في قصري الملكين الفونسو ، الملقب بالحكيم ، في اسبانيا وفردريك الثاني

في صقلية . كان ثانيهما شخصية غريبة جداً : كان طاغية ،وفي الوقت نفسه كان من اذكى علماء عصره ؛ اطاع الكنيسة لبعض الوقت ،ثم عصاها.وقد قال مرة انا اكبر ثلاثة دجالين في العالم هم موسى والمسيح ومحمد ــ وهو رأي يذكّرنا بما قاله ابو العلاء المعري . الا ان فردريك اظهر تسامحاً شديداً مع المسلمين وابدى صداقة للعرب ، وكان على صلات ودية مع الكامل ملك مصر، وسمى افراد حاشيته اسماء عربية . ولما ازعجته المؤامرات الداخلية فكر بالتخلي عن امبراطوريته في ايطاليا وبناء امبراطورية جديدة في الشرق ، يستطيع ان يتمتع فيها بامتيازات الطاغية الشرقي، وخاصة طاعة الرعية المطلقة . واسكن فردريك، بعد ان اخضع الاغالبة في صقلية ، ستين الف عربي في لوسيرا، وقد احتفظ هؤلاء بحياتهم العربية الخاصة ، وكان لهم قادتهم وشيوخهم وفقهاؤهم الخصوصيون ، وهكذا قامت في قلب اوربا ، وعلى مقربة من مقر البابا نفسه ، لاول مرة في التاريخ، مدينة عربية بصفاتها ومعالمها وسكانها ولغتها .

وقد أغضب بعضَ الاوربيين نموُّ الثقافة العربية في اوربا وانتشارها . وكتب احدهم (الفاروس الذي سبق ذكره) ينتقد معاصريه : « يهوى المسيحيون قراءة اشعار العرب ورواياتهم ، ويدرسون فقه العرب وفلسفاتهم : لا لدحضها ، بل لتحسين لغتهم العربية وتصحيحهـــا . ولكن اين هو الرجل العلماني الذي يقرأ الشروح اللاتينية على الكتاب المقدس ؟ يا للأسف ، ان الجيل المسيحي الجديد الموهوب يقرأ ، بأسره ، الكتب العربية. لقد نسي لغته الاصلية . ومقابل كل واحد يعرف ان يكتب رسالة الى صديقـــه باللغة اللاتينية ثمـــة الف يستطيعون ان يعبّروا عن انفسهم بالعربية بفصاحة ، ويستطيعون ان ينظموا الشعر بالعربية احسن من العرب انفسهم » . ذلك لأن اوربا طمحت الى اللحاق بالحضارة العربية بعد ان ادركت تفوّق الشرق الحضاري، بغيةَ التغلب على تلك الحضارة تغلباً روحياً . وقد ازداد هذا الطموح لما تعرف الاوربيون على نتاج الدولة الاسلامية في الفلسفة والفقه ، ولما تعرفوا على فلسفة الاغريق بواسطة ترجمة العرب ونقلهم لها . ثم ان اوربا اهتمت بالاطلاع على القرآن لمناقشة المسلمين مناقشة منطقية .

بدأ رأي اوربا في الشرق يخفف من عدائه وتحامله في اواسط القرن الثـــاني عشر ، اذ

نعثر فيه على محاولات لتصحيح جهل الشعب عموماً بالشرق . لكنها كانت محـاولات ناقصة بالطبع ، فصوّر اهل الشرق موحدين يتبعون نبياً كذاباً . ولعل الخطوة الأولى لفهم الاسلام من اصوله الرئيسية هي التي قام بها بطرس، الملقب بالوقور ، تاسع اساقفة كلوني. وكان قد فكر بدراسة القرآن وهو يرتحل في اسبانيا ، فاستقدم معه من هنـاك انكليزياً يدعى روبرت من كتون ، وآخر من دلماطية اسمه هرمن ، واستأجر لمساعدتهما عربياً دعي محمد . فاستخدمهما بطرس في ترجمة المصادر العربية ، فترجما بعضها .وكان اعظم اعمالهما ترجمة القرآن الى اللاتينية ، وقد اتمها روبرت في ١١٤٣ (٥٣٨ هـ) . وهي ترجمـة امينة بالنسبة لذلك الوقت . كان الهدف الاول لبطرس محو جهـل اوربا بالاسلام ؛ ولذلك وضع دراسة عن الدين الاسلامي اعتمد فيها على الترجمات عن المصادر العربية ، عنوانها « مختصر هرطقات المسلمين » . ثم كتب دراسة اخرى للاسلام من وجهة نظره المسيحية ، تبرز فيها لهجته المسالمة وتسامحه . يقول فيها ، مخاطباً قراءه من المسلمين : « لن اتهجـم عليكم التهجم المألوف ، بل سأخاطبكم عقلانياً . ولن اناقشكم عن كره ، بل عن محبة » . ولا شك ان هذه الكتابات اسهمت كثيراً في تعريف اوربا على العرب ،ولكنها لم تنصف العرب ، فظل اوربيو القرون الوسطى عاجزين عن فهـم العرب وحضارتهم وافكارهم وثقافتهـم . وكان الاسلام بنوع خاص اقل ما فهموا واكثر ما اساءوا الظن به . فلم يستوعبوا فكرة نزول القرآن بالوحي، ولم يروا في الدين الاسلامي غير حكم يقوم بالاكراه ويتساهل في الامور الجنسية !

لذلك عمّ اوربا فرح عظيم لما ذاع خبر ظهور ملك مسيحي في الشرق احتـل بلاد الفرس وتوجه نحو قاعدة الخلافة العربية في بغداد لتدميرها ـ وكان ذلك اثر الحملة الصليبية الخامسة في ١٢٢١ ، لما كاد الغرب يتخلى عن كل امل باحتلال الشرق العربي احتلالا عسكريا . فاحيا الخبر الامـل القديم بدكّ المُلك العربي الاسلامي . ولكن سرعان ما تبددت هذه الآمال ، اذ تبين ان الملك العسكري ليس الا جنكيز خان ، الوثني الذي ارتجف رهبان الاديرة من سماع اسمه ارتجاف المسلمين ! وقد حملت مصيبـة الغزو المغولي العرب على الاستعانة بالملوك الاوربيين. واوفد رئيس الحشاشين، صاحب الصيت المرعب، رسولا عنه الى بلاطات اوربا يستغيث بالملوك ضد المغول . لكن مسعاه خاب ، اذ اجابه مطران ونشستر في انكلترا : « فلتتقاتل الكلاب فيما بينها حتى يفني بعضها بعضاً ، كي تقوم

الكنيسة الكاثوليكية الجامعة على انقاضها ، ويصبح العالم عندئذ ، بالفعل ، راعياً واحداً ورعية واحدة »! وقد امل حكام الغرب بتنصير المغول ثم باستخدامهم في محاربة المسلمين. والحقيقة ان اتباع الاديان الاربعة الكبرى كلها (البوذيين والمسيحيين والمسلمين واليهود) منوا انفسهم بهذه الامنية: اراد كل منهم ان يدخل المغول في دينه ليحارب بهم اخصامه. ومع ان النجاح كان حليف الغرب بادىء الامر ، فقد اسلم المغول ثم حكموا العالم الاسلامي آخر الامر . وكان تيمورلنك ، ثاني الطغاة المغول ومروّع الشرق بعد جنكيز خـان ، مسلماً صحيحاً بالرغم من صلاته الحسنة باوربا .

وبالرغم من امثال هؤلاء الغزاة ومصائبهم في الشرق، فقد تمكن الشرق من تهديد اوربا مرة اخرى ، عندما اتسعت الامبراطورية التجارية وامتدت حدودها الى اسوار فيينـا واخافت اوربا بأسرها وارهقتها وقضت مضاجعها . وكان من نتائج ذلك ان سوّد فكرة الشرق في ذهن الاوربيين الى حدّ بعيد . وزاد في سواد هذه الفكرة ما تناقلته اوربا من اخبار (صحيحة احياناً ومختلقة احياناً اخرى) وكتابات ونوادر عن العذاب الذي يلاقيه المسيحيون تحت النير العثماني . وزاد فيه ، ايضاً ، ما رواه الاسرى الاوربيون الذين وقعوا في أيدي قرصان الجزائر من مغامرات ومخاطر .

حصلت تطورات جذرية في اوربا في ذلك الوقت ، بظهور حركة الاصلاح الانجيلي او البروتستانتي . ومع هذا لم يعمل ذلك على وصول اوربا الى تفهم منصف للعرب . فقد قال لوثر ان الكنيسة في روما هي رأس المسيح الكذاب ، اما الاسلام فهو جسده . ومثلما انقسم مسيحيو غربي اوربا الى انجيليين وكاثوليك ، وبينما حصل هذا الانقسام ، تجلى لأوربا انقسام المسلمين (وخاصة غير العرب منهم) الى سنّة وشيعة ، ولكل من الطائفتين مملكتها الكبيرة : الدولة التركية للاولى والدولة الفارسية للثانية . فابتهجت اوربا لهـذا الانقسام ، وكتب الرحالة الانكليزي طوماس هربرت في وصف الاهمية السياسية لهذا الحدث: « انه لمن مصلحة اوربا ان تتعادى هاتان المملكتان الشرقيتان القويتان » .

وزاد عصر الاكتشافات في عدد كتب الرحلات . الا انه لم يحصل تبـدل اساسي في علاقات الشرق بالغرب . ذلك ان الرحالة لم يستوحوا مشاهداتهم واختباراتهم في كتاباتهم

عن الشرق ، وخاصة حينما تناولوا الاسلام كدين؛ بل انهم خلطوا بين ما شاهدوه وسمعوه وبين ما قرأوه مسبقاً او سمعوا عنه قبل البدء برحلاتهم . ومع ان رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر اضافوا الى المعلومات العامـــة الكثير عن الشرق ، فانهم لم يبدّلوا العقلية السائدة في الذهن الاوربي ولم يقوّموها ، بل لم يجروا فيها تعديلا بسيطا .

كانت ترجمة اندريه درير للقرآن الى الفرنسية (التي نشرت في ١٦٤٧) اول ترجمـة للقرآن الى لغات اوربا المعاصرة . ثم ترجم الى الانكليزية بعد سنتين ، وتدل مقدمـة تلك الترجمة على المخاطرة التي قام المترجم بها في عمله . فهو يحاول تبرير القيام بالترجمة قائلا ان القارىء الاوربي لن يتعرض لأيّ خطر من قراءة القرآن ! ولغة المقدمة عنيفة ، يصف الكاتب القرآن فيها بأنه مجموعة اخطاء وانه نتاج مشوّه ! وقد استعمل فولتير ، في القرن التالي ، لهجة مماثلة في كتابه عن محمد (١٧٤٢) . ونحن نلاحظ في محاولة فولتير اتجاهاً جديداً : هو استخدام الاسلام مادة للطعن في المسيحية ! لقد صور فولتير محمداً بالصورة نفسها التي راجت في القرون الوسطى ، كدجال وطاغية واباحي ! انما قصد من ذلك ان يسخر من النبوات عموماً ، ومن الكهنة الكاثوليك بوجه خاص . ولأنه لم يجد كفايته في الاساطير الموروثة ، فقد ابتدع فولتير افتراءات جديدة ضد النبـي العربي ، حتى ان محمداً لم يظلمه احد بمقـدار ماظلمه هذا الكاتب الفرنسي المتحـــرر – مما يدلّ ان المتحررين لم يتحرروا من تعصبهم ضد الشرق ، هذا التعصب الذي تساووا به مع المحافظين ولم يكن ادوارد غيبون خيراً من فولتير من هذه الناحية : فقد كتب باعتزاز وبهجة ان حكم الشرق « البربري » قد مضى عهده ولم يعد يهدد اوربا بعد .

اعتقد بناة الامبراطورية ، في القرن التاسع عشر ، ان استبداد الحكومات الشرقية يقوم على الاسلام ، لما رسب في افكارهم من ان الاسلام يعتمد القوة وحدها في حكمه .من هنا كان دعاة الحرية من الكتاب الاوربيين اخصاماً للشرق وتقاليده ، حتى ان بعضهم (مثل جيمس مورير في قصته « مرزا» ،١٨٤٣) دعا اوربا لان تحكم الشرق وتقضي على الطغيان فيــه ! ولذلك استمر ، بين الحين والآخر ، ظهور كتّاب جدد يعكرون صفـــاء ذهن الرجل العادي (بل والمثقف) ويسممون تصوراته عن الشرق تسميما مفتعلا في

اغلب الاوقات .

الا ان ذلك كله لم يمنع قيام كتّاب منصفين. ومهما كانت الصورة قاتمة فان لها جانباً براقاً، وان كان صغيراً . فقد عمل نموّ الاستشراق وتوافر دراساته عن هذا الجزء من العالم على توسيع افق معرفة الغرب بالشرق ، توسيعاً نتج عنه ميل للتعرف على الشرق على صعيد اكاديمي وبروح علمية وبدون تحيزمسبق . ولعل المستشرق الهولندي هارديان رلاند اول من تفهم الشرق وانصفه في اوربا ، في كتابه : « في دين محمد » ، ١٧١٧ . وله الفضل في وضع هذه القاعدة الذهبية في علم الاستشراق : لا سبيل الى فهم الشرق الا من خلال المصادر الشرقية الاولية ذاتها . وتبعه مستشرق آخر ، هو جيكوب ارهارت ، فوضع في ١٧٣١ دراسة قصيرة ، ولكن عميقة ، عن اصول عداء اوربا للشرق . وقد فنّد اتهامات بني قومه وتحاملهم على العرب باسلوب منطقي . وكانت كتب عربية كثيرة قد بدأت تظهر بلغات اوربا المختلفة في هذه الاثناء، وعلى رأسها ترجمات اخرى للقرآن (ابرزها ترجمة سيل، ١٧٣٤) ، فاطلع علماء اوربا بواسطتها على الفكر العربي الاصيل ، بدون وسيط ، اطلاعاً مباشراً اعطاهم اصحّ فكرة عن التراث العربي .

غير ان نقطة التحول في تفهّم الغرب للشرق ، وفي تبديل الصورة القاتمة القديمة ، انما كانت في محاضرة شهيرة القاها كارلايل بعنوان « البطل كنبيّ » في ١٨٣٧ (ونشرت بعد اربع سنوات) . حثّ كارلايل مواطنيه على ان يصرفوا من اذهانهم رواسب الصورة القديمة : « لقد حان الوقت لأن نبدّل تلك الصورة » . وحاول ان يفنّد التعصب التقليدي ضد الشرق ،كما حاول ان يضع في اذهان الناس تخيلات منصفة وعادلة. وقد بدأ محاضرته باقتباس غيته: « اذا كان هذا هو الاسلام ، السنا كلنا مسلمين ؟ » ، ثم انتقل كارلايل الى تحطيم القصص المبتدعة عن الرسول ، وقال : « لاتحقّر هذه الاكاذيب التي كوّمها التعصب حول الرسول ، الا انفسنا » . ومع ان كارلايل لم يقبل بالصورة التي رسمت المصادر الاسلامية الرسول بها ، فانه انتقد معظم الافكار الاوربية حوله ، وابرز الكثير من صفاته النبيلة ،كما اظهر ان نقيض مارواه الاوربيون عن العرب ، منذ القرون الوسطى، هو الاصوب . وقد تبدو حجج كارلايل غير صائبة احياناً للقارىء الذي لايشاركه آراءه ونظريته في عبادة البطل ، وصحيح انه لم يبن تقديره للاسلام على أيّ اساس نظري سليم ــ ومع هذا فان محاولته كانت حجر زاوية ونقطة انطلاق . وقد ختم المحاضرة بقوله :

« كان مولد الاسلام ، بالنسبة الى الأمة العربية ،مولداً للنور من الظلمة . به اصبح للجزيرة العربية كيان وحياة . أرسل الى هذا الشعب ، الذي ترحل في صحارى جزيرته منذ بدء الخليقة دون ان يحظى باهتمام الناس ، رسولٌ بطل ومعه رسالة ليؤمنوا بها. فأصبح المجهول معلوماً ، والبسيط عظيماً . ووصلت اطراف الامبراطورية العربية غرناطة من جهة ودلهي من جهة اخرى في قرن واحد فقط . وانارت البلاد العربية بنور عظمتها ومواهبها وامجادها في عصور مظلمة فوق جزء كبير من العالم . ان الايمان خــلّاق . به يثمر تاريخ الأمة وتترقى الانفس . البشر وقود ينتظر الرجل العظيم يأتيه من السماء كشرارة نار ، فيلتهب الاثنان معاً » .

وقد حفلت اوربا ، منذ كارلايل ، بكتّاب عالجوا الشؤون الشرقية بلا تحيز؛ ونكتفي بذكر احدهم فقط ، ادون ارنولد ، الذي عــبّر عن تقديره للاسلام في كتابه « جوهرة الايمان » ، وهو تعداد لأسماء الله الحسنى التسعة والتسعين . وقد حشى الكاتب بحثه بقصص واخبار استمدها من القرآن والاحاديث والمصادر العربية الاصلية ، ونفي عن الاسلام ان يكون بينه وبين المسيحية فرق من حيث الاهداف السلمية والمثل العليا . وشاع في اوربا ما رواه الكاتب عن الرسول شيوعاً كبيراً ، خفف من التحامل السابق ، ـــ وان حصل ذلك متأخراً عدة قرون . وذهبت صيحته «يجب ان نفهم الاسلام وان نتفاهم معه»مثلاً .

*

ترجو هذه المجلة جميع الذين يكاتبونها ان

يوجهوا رسائلهم اليها بالبريد المسجل